استفتاء

# مثقفو المغرب والتطبيع

أجراه: عبد الحق لبيض

## ١ - التطبيع الثقافي

عبد الكريم غلاّب(*)

كلمة التطبيع جديدة في مفاهيمها، إذْ دخلت اللغةَ العربية مع اختراق الوجود الإسرائيلي للكيان العربي ووجدانه وفكره ومنطقه. فإذا عدنا إلى أصلها اللغوي نجد «الجذر» موجوداً في العربية... فيمكن أن تكون من «طَبَعَ» أخذاً من قوله تعالى ﴿وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ ومن قوله تعالى ﴿نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ ؛ أو من «طَبَعَ فلاناً» أي عَوّده على شيءٍ ما... أو «طَبَعَ الدولارَ» أي صَاغَه وأنْشَأَهُ؛ أوْ مِنْ «طَبَعَ الدابة والإنسان» أي حمّلهما ما لا يطيقان؛ أو من «طَبَعَ الشيء» أي دنَّسَهُ وشانه. ويمكن أن تكون مشتقّة من «طَبِعَ الشيء» أي دُنّس وعِيبَ في جسم أو خلق؛ أو «طَبع الثوب» إذا اتّسخ وتعفّن، ومثل الثوبِ: العقلُ والروح والوجدان. ويمكن أن تكون من «طبّع الشيء» بمعنى دنّسه ونجّسه. فإذا أضيف التطبيع بهذا المعنى إلى الثقافة فسيكون الأمر شبه خطير... ومنه «الطّبع» أي الوسخ الشديد، والطَّبِعُ أي الدَّنِس والدنيء الخلق. ويمكن أن يكون مشتقاً من «ضبع» على عادة العرب في تحويل حرف في النطق إلى حرف مجاور، فانقلبتِ الضاد طاء، ومعنى ضَبُعَ فلانٌ: جبن وكان في خلق «الضَّبُع»

**هل «طَبّعَ» تعني دَنّسَ، أم أصلها من «الضَّبُع» وهي المشهورة بذكائها الخارق؟!**

والضّبع معروفة بين الحيوانات «بذكائها» الخارق...!

اللغة هي مشكلتنا على الدوام. وهناك سؤال قفز إلى ذهني كما لعلّه أن يقفز إلى ذهن كثير من القرّاء: تطبيع ماذا؟ الجواب سهل: تطبيع الثقافة أي تحويلها إلى شيء مُطَبّع له طبيعة خاصة. فلنتحرّرْ من الجار والمجرور، وسؤال: ماذا؟ مع: ماذا؟ وَلْنَنفذْ إلى عقول دعاة التطبيع نبحث فيها عمّا يريدون أن يقولوا وإذّاك سنجد - والله أعلم - أنهم يريدون أن يقولوا. يجب أن نجعل الثقافة كالسياسة والاقتصاد. السياسة اختُرِقَتْ فأصبحت إسرائيل تفرض وجودها على القضايا العربية وعلى الوجدان العربي، أي تحقّق بالرضا والقبول والمصافحة والقبلات المتلفزة والتصفيق والهتاف و... ما لم تستطع أن تحقّقه بخمس حروب، رغم الهزائم الخمس. فكان الاعتراف أوّلاً (على وزن «غزّة وأريحا أوّلاً») ثم كان تبادل الزيارات، ثم تبادل المكاتب فالسفارات في غمرة الاتفاقات والمحادثات... وسيجيء الاقتصاد ليطبّع هو الآخر، وستكون رؤوسُ الأموال الأمريكية (الدولار) المطبوعة بنجمة داود لا بصورة جورج واشنطن أو أبراهام لنكولن. وتجيء الصناعة الاسرائيلية لتطبّع، أي لتصبح استهلاك كل العرب، والمواد الزراعية الإسرائيلية من الطماطم حتى البرتقال لتكون غذاء جميع العرب. ثم يجيء البترول العربي ليدركه التطبيع فيصبح بترولُ إسرائيل يجري في مواسير إسرائيلية تحت الأرض «الإسرائيلية»، وليعني التطبيع أن تقفل إسرائيل «الحنفيّة» متى شاءت أو تحطّم مجرى النهر البترولي العربي، أو ليضرب العمّال الاسرائيليون عن تسويق البترول العربي - الإسرائيلي. ويتخزّن دخل البترول العربي في البنوك الإسرائيلية تمنح منه للعرب ما شاءت وتحتجز ما شاءت، وتتاجر به وترهن ذمّة

(*) مفكر ومبدع وسياسي من المغرب. مدير جريدة العلم المغربية

العرب في بنوكها حتى إذا «أفلست» هذه البنوك أفلس كل العرب، وتحاصره إذا شاءت كما حاصرت دول الحلف الثلاثيني دَخْلَ العراق من البترول وصادرَتْهُ لتدفع به أجورَ الجنود الأمريكيين في عاصفة الصحراء.

ونصل بعد السياسة والاقتصاد إلى الثقافة. فكيف يطبّعون الثقافة؟ وأية ثقافة هذه التي ستُطبَّع؟ أمّا الثقافة بالمفهوم العامّ فهي مطبَّعة منذ كانت ثقافة. لا أحد كان يستطيع أن يقف في وجه الثقافة العربية أو الثقافة اليهودية إنْ صحّ أنّ الثقافة تنتسب جميعها للدين أو للّغة، مادامت هناك حرية في التفكير والتعبير والتبليغ. ابن سهل اليهودي كان شاعراً عربيّاً، ولم يمتنع أحد من العرب المسلمين عن قراءة شعره، أو اعترض على إشاعة شعره لأنه يهودي. وابن ميمون كان فيلسوفاً يهودياً عربيّاً، ولم يعترض أحد على قراءة فلسفته وتقدير مقولاته لمجرّد أنّه يهودي؛ والذين عرّفوا بابن سهل وابن ميمون (كمثاليْن للمثقفين اليهود) في العصر الحاضر هم العرب المسلمون؛ والذين نشروا ودرسوا شعرَ الأوّل وفلسفةَ الثاني هم العرب المسلمون والمسيحيون لا اليهود البولونيون أو الروسيون أو الأمريكيون. وحينما كتب حاييم زعفراني اليهودي المغربي كتابه عن تاريخ **يهود المغرب في ألف عام** تلقّفه المثقفون المغاربة بالترجمة والترحيب والتقدير.

واللغة العبرية كانت من مشمولات الثقافة العربية في الجامعات العربية سواء على عهد الأندلس أو اليوم. وكانت جامعة القاهرة، وهي من أقدم الجامعات العربية في العصر الحاضر، تفرض دراسةَ العبرية على طلبة الدراسات العربية. وفي جامعة محمد الخامس تقرّرتْ دراسة العبرية وآدابها منذ نشأة الجامعة.

لا أحد من العرب وقف ينافح ضد

**لم يعترض أحدٌ من المغرب على نشر نتاج ابن سهل وابن ميمون وحاييم زعفراني اليوم!**

قراءة الإنتاج اليهودي الحديث رغم ما في بعض نصوصه من نزعة عرقيّة وروح عدائيّة(...) ولا أحد من دعاة الحرية العرب والمسلمين وقف في وجه ثقافة اليهود. ولكن الصهيونيين في إسرائيل هم الذين وقفوا في وجه الثقافة العربية منذ فرضوا وجودهم وحكمهم على الشعب الفلسطيني. اسألوا أطفال فلسطين، الذين حملوا الحجارة منهم والذين لم يحملوها، كيف قرأوا؟ وهل أتيح لهم ما أتيح لزملائهم اليهود من وسائل المعرفة: من المدرسة إلى الكتاب والجامعة، والمنحة الدراسية، أو الهجرة في سبيل العلم؟ هل التقى أحدٌ منا في أيّة عاصمة علمية بفلسطينيين خرجوا من أرض فلسطين المحتلّة ليواصلوا دراستهم على نفقة الدولة، دولة إسرائيل؟

التطبيع اكتسى نكهة «مغشوشة». أحد المستعربين اليهود ترجم رواية لتوفيق الحكيم وآخر ترجم نصّاً لنجيب محفوظ (بعد التطبيع الساداتي) فأقاموا الدنيا وأقعدوها زاعمين أن الصهيونيين منفتحون على الثقافة العربية. بعض المثقّفين المصريين وبعض الصحفيين دعوا إلى «التطبيع» ومنهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض، فرددت الصدى صحفُ الصهيونية من نيويورك حتى تل أبيب. بعض الإسرائيليين الذين وجدوا في القاهرة مركزاً للإشعاع الصهيوني أخذوا يتسلّلون إلى الندوات الثقافية المصرية ومنها ندوة نجيب محفوظ التي يحضرها ثلة من «الحرافيش». الرجل الطيب المطبوع بحرية الثقافة لم يجد في ذلك حرجاً، ولا أدرك - فيما يبدو - ما يقصده المتسلّلون إلى ندوة الأديب «النوبلي». اعتبر هذا التسلّل تطبيعاً للثقافة، أي تطبيعاً للثقافتين الصهيونية والعربية.

وما درى دعاة «التطبيع» أن الانفتاح الثقافي ليس في حاجة إلى قرار يصدر من تل أبيب أو من القاهرة أو من الدار البيضاء. فالمثقّفون منفتحون على الثقافة المتحرّرة من:

- اغتصاب الحرية ومصادرتها ومراقبة الشعراء والمفكرين والأساتذة والطلبة لأن لهم ذنباً واحداً هو الإيمان بوجودهم وهويتهم ووطنهم والتمسّك بحريّتهم.

-العنصرية العرقية التي تؤمن بشعب الله المختار وبأبناء الله وأحبّائه، والتي تؤهّل أبناءها لاغتصاب الأرض وإبادة الإنسان.

- البعد الوحيد الذي لا يتيح للآخر أن يقول كلمته أو ينشر كتابه أو يلقي درسه أو يحكي تاريخه أو يرسم خارطة بلاده.

ودون أن يكون هناك تطبيع، فإنّ المثقّفين العرب مستعدون ليقرأوا - وهم يقرأون بالفعل - كلّ إنتاج اليهود، وحتى الصهيونيين منهم. فليقرأ اليهود - والصهيونيون بخاصة - بكلّ اللغات التي يتقنونها ما أنتجته الثقافة الإسلامية والعربية، وليستمعوا دون عقدة عداوة أو نقمة إلى الخطاب العربي سواء أكان سياسيّاً أم فكرياً ثقافياً ولو لم يعجبه، وليناقشوا الفكر العربي بكل حرية وتحرّر من العقد الهتلرية. فذلك هو التطبيع الثقافي.

كانت الحياة تسير في مجرى واحد بين العرب واليهود في جميع أنحاء الأرض بما فيها أرض فلسطين حتى جاءت الصهيونية فصبغت المجرى باللون الأحمر، وزرعت في الأرض العداوة والبغضاء.. المثقّفون - عرباً ويهوداً - ليسوا مسؤولين عن ذلك ومن أجل ذلك فالثقافة الحقيقية لا تحتاج إلى تطبيع. الحرية هي طابعها.

# ٢ - التطبيع المستحيل...

مصطفى المسناوي*

١ - تظلّ كلمة «تطبيع» مضافة إلى نعت «ثقافي» مجرّد كلمة مستوردة من مجال أبعد ما يكون عن الثقافة. وقد يكون هذا المجال هو السياسة، وقد يكون هو الاقتصاد، إلاّ أنّه، تأكيداً لا علاقة له بكلمة ثقافة.

فإذا كنا نفهم من التطبيع السياسي ربطَ العلاقات الديبلوماسية مع العدو، مثلاً، ونفهم من التطبيع الاقتصادي تبادلَ البضائع ورؤوس الأموال معه، فماذا ترانا نعني، بالضبط، حين نقول «التطبيع الثقافي»؟ ذلك أن اختلاف المجال الثقافي عن المجالين السياسي والاقتصادي يجعل الكلمة خاليةً من المعنى تماماً. ولذلك لا يُفهم من التطبيع، مضافاً إلى الثقافة، ترجمةُ الأعمال من لغة إلى أخرى أو تعرّفُ كلّ طرف على فنون الطرف الآخر وإبداعاته، وإنما يُفهم منه، وعلى نحو محدّد: تبادلُ الزيارات واللقاء في ندوات أو مؤتمرات عالمية... أي يفهم منه ممارسة تندرج ضمن ما درجنا على تسميته بـ«تحطيم الحاجز النفسي» ومن ثمّ يصبح عنصراً داخلاً مباشرة في «التطبيع السياسي» ولا علاقة له مطلقاً بالثقافة.

إلاّ أنه، وفي ظلّ الوقاحة التي صار يبديها بعضُ الكتّاب أو الكتبة عندنا، سواء داخل المغرب أم خارجه وإصراراهم على أن يتحوّلوا إلى مجرّد بيادق في يد دعاة «التطبيعيْن» السياسي والإقتصادي، فإنّ الفرد لا يمكنه - والأسى الشديد يغمره - إلاّ أن يعاود التذكير ببعض الميادين التي لا يستقيم وجودُ الكاتب أو المثقّف العربي بدونها، وهي التي يبدو أنها صارت تغيب عن الأذهان في ظلّ الوضع العربي الراهن المتميّز بتخاذل النخب والقيادات، وتعمُّقِ الهُوَّةِ بينها وبين الجماهير الشعبية الّتي صارت ترفض الفصلَ بين المطلب الاجتماعي والمطلبين القومي والعقيدي.

٢ - إن ما يسمّى بـ«التطبيع» الثقافي مع العدو الصهيوني يستحيل تماماً، لعدّة اعتبارات، منها المبدئي ومنها الثقافي ومنها السياسي:

**الاعتراف بشرعية الاغتصاب الصهيوني يعني انسحابنا من التاريخ والجغرافية!**

أ - فمن الناحية المبدئية يستحيل تطبيع العلاقات مع عدو يحتلّ بقوّة السلاح أرضاً ليست له. قد يجد السياسيُّ لنفسهِ مبرّراتٍ يَخْضَع بمقتضاها لأمر واقع ما، فيقبل باتفاق قد يكون هو غزّة وأريحا أوّلاً أو «غزّة وأريحا أوّلاً وأخيراً». إلاّ أن الفكر موجود لكي يعلّم الإنسان ألاّ يخضع لواقع يقوم على رفضه وإلغائه كإنسان. وأن أعترف بشرعية الاغتصاب الصهيوني الذي يقوم على نفيي كعربي، فهذا معناه أنّني أعترف بهذا النفي، وأنّه ما عاد عليّ سوى الانسحاب من التاريخ بعد أن قبلت إخراجي من الجغرافيا.

ومن الناحية المبدئية، كذلك، يستحيل على الكاتب، المؤمن بمبادئ العدل والديمقراطية والحرية والمساواة، أن يطبّع العلاقات مع دولة عنصرية تعتبر البشرَ الموجودين فوق أرضها أسمى البشر وغيرَهم مجرَّد موجودات أدنى. يستحيل على الكاتب أن يرفض الفاشيةَ والنازيةَ ويقبل بالصهيونية، ويستحيل على الكاتب العربي الديمقراطي أن «يطبّع» علاقاته مع دولة عسكرية ينقسم سكانُها إلى فئتين من الناس: إلى جنود وإلى جنود في الإحتياط! يستحيل على الكاتب العربي، لكي يظلّ منسجماً مع نفسه، أن يرفض عسكرةَ مجتمعِهِ، ويرتمي في أحضان ثكنة عسكرية من العصور الوسطى تحمل اسم «إسرائيل».

ومن الناحية المبدئية، كذلك، يستحيل على الكاتب الرافض لسيطرة رجال الدين على الشؤون العامّة، والمؤمن بضرورة خضوع أمور الدولة والمجتمع للتداول الحرّ بين مواطنين يتمتعون بالوعي وحرية الرأي والتعبير والقرار، يستحيل عليه أن يقبل - بله أن «يطبّع» - العلاقات بدولة دينية، تسلّم قيادتَها لأكثر فئاتها الدينية تخلّفاً، وتعرف أقوى أشكال التزمّت الديني في العالم، ذلك التزمّت الذي يشمل جميع جوانب حياة المستوطنين المحتلّين، ويكشف في كل لحظةٍ وحينٍ عن نفاق المجتمع الغربي،

**يستحيل على الكاتب العربي أن يرفض عسكرة مجتمعه، ثم يرتمي في أحضان ثكنة عسكرية من العصور الوسطى اسمها «إسرائيل»!**

* قاص وناقد أدبي من المغرب

الذي يدّعي «العلمانية» في الظاهر ويضع كامل دعمه إلى جانب أبشع دولة دينية يعرفها التاريخ.

ب – ومن الناحية الثقافية يستحيل «التطبيع» مع ثقافة لا وجود لها. هل هناك ثقافة لهذا الكيان الذي يحمل اسم «إسرائيل»؟ رغم طول المدّة التي انقضت منذ تأسيس «الدولة» يمكن الجواب بأنّ «الثقافة» بالمفرد لا وجود لها، وكلّ ما هنالك هو «الثقافات» التي حملتها معها المجموعاتُ اليهودية المهجّرة إلى «أرض الميعاد». فإلى الآن مازالت كلُّ مجموعة محافظةً على ثقافة موطنها الأصلي، في الملبس والمأكل والغناء، في وجود فسيفسائي لا مثيل له عبر العالم. ولكي يحسّ اليهودي «الإسرائيلي» اليوم بالانتماء، فإنه يعود إلى ثقافة أخرى، قد تكون هي العراقية أو المغربية أو اليمنية أو البولونية، بحثاً عن جذور لم يعثر عليها، بعدُ، في «أرض الميعاد». ومعنى ذلك أنّ «الدويلة» الصهيونية مازالت عاجزة إلى الآن عن دمج الثقافات الأصلية ليهودها، في ثقافة واحدة أصلية تعطيهم الإحساسَ بالانتماء. ولذلك نجد تلك الظاهرة الغريبة المتمثّلة في انعدام الأعمال الأدبية والفنية «الإسرائيلية» المتميزة على الصعيد العالمي – حتى الآن – ومن ثمّ إحساس عدد كبير من الكتّاب والفنّانين اليهود، حين تبلغ كتاباتهم أو فنّهم درجة معيّنة من التطوّر، بضرورة مغادرة فلسطين المحتلّة، للعيش في بلد من البلدان الغربية، والاندماج ضمن لغته وثقافته.

ج – ولا يمكن «التطبيع» في النهاية، من الناحية السياسية، لأنه يعني ربط علاقات مع عدو مازال يرفض الجلاء عن أرض عربيّة احتلّها بالقوّة، ومازال يقتل ويشرّد ويعتقل الفلسطينيين بالآلاف، بل ويرفض السماح بعودة عشرات الآلاف من النازحين بعد حربي ٤٨ و٦٧ إلى وطنهم.

# ٣ – السلام والخيانة

عبد القادر الشاوي*

١ – لم يُثَرْ موضوعُ التطبيع في الساحة الثقافية العربية، مع أن إسرائيل موجودة وجوداً رسمياً في المنطقة بالقوة والاغتصاب منذ قرابة نصف قرن، إلاّ بعد توقيع «معاهدة السلام» في واشنطن في صيف ١٩٩٣. ويبدو أنّ المناخ السائد في العالم العربي، بعد الزعزعة التي أحدثتها حربُ الخليج، قد جعل كل شيء قابلاً للإثارة والاعتبار. أما إذا قدّرنا طبيعة التحوّلات العميقة التي أحدثتها الانقلابات الفكرية الكبرى، وخاصة على مستوى العقائد والتصوّرات والاهتمامات، فمن البيّن أن صيغ المراجعة الفكرية الشاملة، ولو بدون مشروع حقيقي، أصبحتْ تمثّل جزءاً من التصوّرات السائدة. إذ هناك إعادة نظر في الكثير من الأوضاع التي كانتْ إلى عهد قريب مطبوعة بالجمود أو بالقداسة أو بالمحافظة، وربّما أحياناً بالاعتبار الخاص الذي يماشي طبيعةَ الذهنية السائدة. بل يمكن القول إنّ أشكال الوجود الاجتماعي والفكري أضحت مثار أسئلة تذهب أحياناً إلى العمق من وجودها. ويمكن الحديث في هذا المجال عن انهيار الأنساق الايديولوجية التي كوّنت الوعيَ السياسي والعقائدي طوال مراحل طويلة في مختلف المجتمعات العربية ضمن ما عُرف بالنهضة أو ما يحايثها من مفاهيم ومصطلحات، حسب تطوّر تلك المجتمعات وديناميكيتها الداخلية وطبيعة القوى الفاعلة فيها.

وإذ يُثار موضوعُ التطبيع ويشكّل في الوقت نفسه جزءاً من اهتمام النخب المثقفة في الوطن العربي، قبولاً أو رفضاً، فمعناه أن «الحماية» الثقافية التي كانت توفّرها أنماطُ الوجود السياسي والإيديولوجي لم تعد تستجيب لنوعية التحوّلات الحادثة ولطبيعة الأسئلة المطروحة.. هذا دون أن يغرب عن البال أنّ الساحة الثقافية العربية الآن لا تملك أي مشروع فكري كيفما كانت أبعاده النظرية يدعو إلى استقطاب اهتمامات النخب الثقافية ويؤثّر، بقدر معين، في توجيه سلوكها العام.

٢ – ويمكن النظر إلى بروز موضوع التطبيع واستوائه على قاعدة النقاش والتداول بدرجات معيّنة من الحدّة أو التجاهل، من الناحية السياسية، كشكل آخر من أشكال تراجع الممارسات السابقة التي كانت تؤطّر الوعيَ الوطني والقومي وتفعل في تعبيراته الظاهرة. وقد صاحَبَ هذا التراجعَ انهيارُ القيم الضامنة لسيادة تلك الممارسات وانحسار المدّ الذي ولّدته في السابق، مثلما يعني هذا الانهيارُ خفوتَ صوت الحركات الاجتماعية والسياسية التي كانت إلى عهد قريب تملأ الساحات بشعاراتها ومطالبها والمشاريع التي كانت تقترحها للتقدّم والنموّ.

٣ – إنّ قضية التطبيع ليست قضية ثقافية حصراً. بل إنّ البعد الثقافي فيها لا يمثّل سوى مكوِّن واحد من مكوّنات المسار العام المنتهج في الوقت الراهن في بعض مناطق العالم العربي (...) على مستويات أخرى أهم وأشمل (الاقتصاد، السياسة...). ويخيّل إليّ أنه بقدر ما يزداد العامل الاقتصادي في التطبيع ظهوراً واستحكاماً، سيصبح التطبيع الثقافي بالتدريج وضعاً معطى لا يمكن التحكّم بمداه ولا باتّساعه. على أن الذي يكرّس قضية التطبيع بشكل عام يبدو، في الوقت الراهن، على صلة مباشرة بتواصل عملية «السلام» وظهور هذه العملية، بصرف النظر عن الصعوبات التي تلاقيها والمضامينِ الجوفاء التي تفرزها، وكأنّها الحلّ الأمثل لظاهرتي القهر الوطني والسياسي... مثلما يبدو أنّ الشعب الفلسطيني يوجد في قلب هذه العملية بحكم اتّصاله المباشر بواقع التطبيع اليومي بقطع النظر أيضاً عن جميع مظاهر المقاومة المعلنة أو المستترة. وإذا ما

(*) روائي وصحفي وناقد من المغرب، صدرت له أخيراً رواية **باب تازة**.

ترسّخت عملية «السلام» برضى جميع فئات الشعب الفلسطيني في المستقبل، فإن مجال التطبيع الثقافي على صعيد الوطن العربي كلّه سيصبح معادلاً موضوعياً للقبول بالسلام مع إسرائيل أو رفضه. وفي الحين الذي يمكن أن يشكّل قبول السلام اختياراً طبيعياً للتعايش، يمكن أن يتحوّل الرفض إلى موقف عدائي غير مقبول من منظور مفهوم «الشرعية الدولية» التي تتأسّس في جانبها المعلن على العنف المادي والرمزي. ومهما كانت طبيعة المواقف القابلة للسلام أو تلك الرافضة له، فإنّنا على أهبة الدخول في مرحلة أخرى سيكون فيها الموقفُ من التطبيع العام محدِّداً لغيره من القضايا الأخرى، وبالأخصّ قضيّة التنمية الوطنية التي يبدو الآن أنها لم تعد ترتبط بالمشروع الوطني أو القومي حصراً كما كان عليه الأمر في السابق يوم كانت النهضة مشروع الدولة الوطنية في المشرق والمغرب على السواء.

٤ – وبالجملة فإنّ مناقشة موضوع التطبيع الثقافي لا ينفصل بأيّ حال من الأحوال عن مناقشة أسباب الهزيمة التي تقذف بالعالم العربي الآن، بسبب طبيعة النظم القائمة ومسار التحوّلات العامة في بنياته، في مهاوي التخلّف والانحطاط.

ومن هذه الزاوية فإنّ اقتراح أسباب النهوض أصبح على اتصال حقيقي، بعد التنمية الاقتصادية الكفيلة بتحقيق الرفاه الوطني، بمظهرين أساسين من مظاهر الوجود:

أ – بناء الديمقراطية وتأصيل مشروعها العام في الحياة العربية بوصفها دعامة أساسية للتفتّح السياسي والاجتماعي والثقافي وحماية حقوق الإنسان وسوى ذلك.

ب – تسهيل عملية انبثاق المجتمع المدني كتعبير مباشر عن التعدّد والاختلاف وكعملية تنظيم للأطر الاجتماعية القادرة على إنجاز التحوّل الاجتماعي والدفاع عنه.

وإذا ما راعينا في هذه العملية أنّ الثقافة العربية تتمتّع بأبعاد تاريخية ضاربة في القدم، وأنها كانت باستمرار سبّاقةً إلى صهر المكوّنات الوافدة عليها أو المجاورة لها، فضلاً عن تعبيرها الظاهر عن كتلة بشرية بينها قواسم مشتركة وتحمل، ولو

**الساحة الثقافية العربية الآن لا تملك أيّ مشروع فكري يستقطب اهتمامات النخب الثقافية ويؤثر في توجيه سلوكها!**

ضمنياً في بعض الأحيان، تطلعاتٍ متوافقةً في نشدان التقدّم والازدهار... فإنه من الضروري أن نفكّر في موضوع التطبيع الثقافي من زاوية أخرى، لعلّها زاوية الصهر الذي قد تكون هذه الثقافة في حاجة إليه لتعزيز تفتّحها الإنسانيّ العام، دونما اعتبار لتاريخ العداء المستحكم في الشعور والوجدان بسبب النزاعات المتّصلة بالهيمنة والتسلّط.

٥ – لقد قيل الكثير في حق بعض المثقفين العرب الذين زاروا إسرائيل بهذه المناسبة أو تلك (ومنهم المغاربة الذين حجّوا إلى تلك الديار ضمن وفد بمناسبة الذكرى الأولى لتوقيع «معاهدة السلام»). وظنّي أن ما قيل، وخصوصاً في الجرائد السيّارة، كان بمثابة استجابة ظرفية لعوامل الضغط السياسي المؤثّر في ذلك الوقت في صياغة المواقف والتوجّهات. فالسلام الممنوح في ذلك الوقت كان اختباراً أكثر منه موقفاً يهدف إلى التعايش واحترام الجوار انطلاقاً من موجبات الاعتراف المتبادل. وعواطفُ المقاومة التي انبعثت في ذلك الوقت كانت محمولة على مختلف أنواع الدعوات المعارضة للمقترح برمّته. أضفْ إلى ذلك أنّ المناخ الذي تلا «حرب الخليج» أظهرَ واقعَ العالم العربي بمظهر المنقسم على نفسه المنهار في مشروعه التنموي المحكوم عليه بالتبعية والتخلّف. وأما الانقسامات العمودية التي مسّت الشعور بالانتماء في بعض الأحيان فكانت عنيفة في التعبير عن التشرذم والعداء.

**مناقشة موضوع «التطبيع الثقافي» لا تنفصل عن مناقشة أسباب هزيمتنا!**

ومن الواضح أنّ الموقف الآن تبدّل بعض الشيء، أو لعلّه خفت، وقد يكون استكان لفترة تأمّل ومراجعة. ولا يعني هذا أن زيارة إسرائيل لا تستوجب التنديدَ أو أنها أضحت أمراً مقبولاً لا تثير الاشمئزاز... مثلما لا يعني هذا أن الزيارة تمثّل أبلغ درجات الخيانة، وتستوجب الإدانة والإقصاء. فظنّي أنّ مناقشة أفراد من المثقفين فيما أقدموا عليه، بدوافع أحياناً متباينة، لا يجب أن يشكّل اتجاهاً عاماً في المناقشة والحكم على ما لم يصبح بعد في حكم الظاهرة على صعيد الثقافة. ومن مظاهر الاستقواء بالقومية وباقي مظاهر الشعور الذاتي بالوطنية الممتنة بذاتها أن يُرى الاختلاف في بعض الأحيان وكأنه جريرة تستوجب العقاب.

وليس هناك الآن من مؤشّر قوي، سوى مؤشّر السلام الذي مازال إلى الآن في مرحلة المساومة والإجهاض المتعمّد، يحمل على اعتبار التطبيع الثقافي أمراً حاصلاً أو وجهة مختارة. ولا يمكن معالجة هذا الموضوع، على فرض وجوده وسريانه في الواقع، من زاوية الخوف كشعور نفسي إزاء وضع ما. وهو ما يعني أن مناقشة التطبيع الثقافي وتحديد الموقف المناسب منه، إيجاباً أو سلباً، يجب أن يكون عنصراً من عناصر التفكير في التحدّيات العامة المفروضة على العالم العربي؛ ومن هذه التحديات إسرائيل نفسها كمشروع شرق – أوسطي لإعادة توزيع النفوذ والسيطرة، بمختلف مظاهرها العامة والاقتصادية منها على وجه الخصوص، في المنطقة.

إن مناقشة التطبيع الثقافي، في رأيي، سؤال ضمن أسئلة أخرى تخص التنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني ومفهوم الدولة والخصوصيات القومية والإثنية وسوى ذلك من القضايا التي يبدو الآن أن الجواب عنها أصبح يشكّل عقدة التطوّر المستقبلية بالنسبة لعالمنا العربي بأكمله. ويظهر لي أن النخب المثقّفة في هذا العالم، في نطاق وظائف إنتاجها للمعرفة العامة، ملزمة بطرح الأسئلة المذكورة والجواب عنها قصد تبرير وجودها الاجتماعي على صعيد الوعي بالواقع وإشكالاته.

من مراسل «الآداب» عبد الحق لبيض